تجارة مكة والشام بين قيصري هاشم بن عبد مناف وعثمان بن الحويرث

أ. أحمد شرير عيد النفيعي

معيد - جامعة أم القرى
المملكة العربية السعودية

المستخلص:

يهدف البحث لتحديد زمن ولادة هاشم بن عبدمناف بشكل تقريبي، وكذلك يهدف ومعرفة كم عاش من الزمن ، وذلك لأهمية هذه الشخصية ، وكونها متعلقة بأشهر الرحلات التجارية قبل الإسلام ، وهي رحلة الشتاء والصيف ، المذكورة في القرآن الكريم ، كما تهدف بعد ذلك لمعرفة القيصر الذي تم معه هذا الاتفاق التجاري ، ومآل هذا الاتفاق ، وأيضاً يهدف البحث لمعرفة قيصر عثمان بن الحويرث الذي حاول التأثير على هذا الاتفاق من خلال فرض الضرائب على التجارة ، ومن هو القيصر الذي حاول التأثير عليه لتطبيق هذه الفكرة ، وتكمن أهمية البحث أنه يغطي جانباً لم يتم الالتفات إليه كثيراً أثناء عرض قصة رحلة الشتاء والصيف ، ألا وهو أسماء القياصرة الذين تم الاتفاق معهم ، وكذلك الأوضاع الاقتصادية التي كانت في دولتهم التي جعلتهم إما يقبلون اتفاق هاشم بن عبدمناف ، أو جعلتهم يحاولون فرض الضرائب عليها كما حدث مع عثمان بن الحويرث ، وهذا يتطلب تحليل الأخبار التي وردت في عمر عبدالمطلب ابن هاشم ، وكذلك التحري في الروايات التي وردت في تحديد عمر هاشم بن عبد مناف ، ثم الانتقال للمصادر والمراجع التي تحدثت عن الدولة البيزنطية لمعرفة الفترات الزمنية لكل قيصر ، ومن ثم توقع القيصر الذي جرى الاتفاق معه ، وبنفس هذه المنهج التحليلي يتم تطبيقه مع عثمان بن الحويرث ، وقد توصل البحث إلى أن هاشماً قد ولد عام 475م تقريباً وتوفي عام 500م تقريبا وأن قيصره هو الامبراطور انستاسيوس ، وأما عثمان بن الحويرث فقيصره إما فوكاس أو موريس ، كما أن العهد كاد أن ينفض سهولة كونه كان شفهياً ، وجاء عدة قياصرة لم يكن هذا الاتفاق التجاري من أولوياتهم .

الكلمات المفتاحية : هاشم بن عبدمناف ، الدولة البيزنطية ، الامبراطور أنستاسيوس ، عثمان بن الحويرث ، الامبراطور فوكاس.

Abstract:

The research aims to determine approximately the time of the birth of Hashem bin Abd Manaf, as well as to know how long he lived, due to the importance of this character, and being related to the most famous commercial trips before Islam, which is the winter and summer trip, mentioned in the Holy Qur'an. Then aims to know the Caesar with whom this commercial agreement was made, and the outcome of this agreement. Also the research aims to find out Caesar Othman bin Al-Huwayrith who tried to influence this agreement by imposing taxes on trade, and who is the Caesar who tried to influence him to implement this idea. The importance of the research lies in that it covers an aspect that has not been paid attention to it a lot during the presentation of the story of the winter and summer trip, namely the names of the Caesars with whom the agreement was made, as well as the economic conditions that were in their state that made them either accept the agreement of Hashim bin Manaf, or made them try to impose taxes on it, as happened with Othman bin Al-Huwaireth. This requires analyzing the news reported on the age of Abd al-Muttalib Ibn Hashim, as well as investigating the narrations that were mentioned in determining the age of Hashim ibn Abd Manaf. Then moving to the sources and references that spoke about the Byzantine state to know the time periods for each Caesar. Then expect the Caesar who was agreed with him, and with this same analytical method, it is applied with Othman bin Al-Huwayrith. The research has concluded that Hashim was born in approximately 475 AD and died approximately in 500 AD and that his Caesar was Emperor Anastasius. As for Othman bin Al-Huwayreth, his Caesar was either Phocas or Maurice. The covenant was almost to shake off the ease because it was verbal. Several Caesars came, and this commercial agreement was not a priority for them.

Kay words: Hashem bin Abd Manaf ,Byzantine State, Emperor Anastasius,Othman bin Al-Huwaireth,Emperor Focus

المقدمة:

تحدثت كل من المصادر التاريخية ، وكتب التفسير ، وكتب الأنساب والسير عن شخصية جد النبي ﷺ هاشم بن عبدالمطلب، والذي إليه تنسب أسرة النبي ﷺ وهي الأسرة الهاشمية ، كما تحدثت كثيراً عن رحلته المشهورة ، وهي رحلة الشتاء والصيف ، المذكورة في كتاب الله ، وعن ذلك العهد التجاري الذي عقد بين كل من مكة والشام ، ولكن لم تذكر المصادر من هذا القيصر الذي تم معه الاتفاق ، وهذا يتطلب محاولة الوصول للزمن التقريبي لولادة هاشم بن عبدالمطلب ، وعمره كذلك ، ولم تتوسع المصادر كثيراً في التحدث عن مآل هذا العهد التجاري ، وكذلك من هو عثمان بن الحويرث ، ودوره في إفشال هذا العهد ، ومن هو قيصره الذي حاول التأثير عليه للقيام بذلك ، وهذا ما يحاول البحث الوصول إليه من خلال تتبع الروايات حول عمر هاشم بن عبدالمطلب ، والبحث في التاريخ البيزنطي لمعرفة فترات حكم القياصرة .وقال الواقدي وغيره: كان عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى قدرفض الأوثان ومات على النصرانية، فقدم على قيصر فكان ترجمانه يحرف ما يقول له فلا يرى عند قيصر ما يحب، فبينا هو ذات يوم يمر في بعض الطريق إذ سمع رجلا في زي الروم يتكلم العربية وينشد بيت شعر فقال له: يا هذا إنك تتكلم بلساني فمن أنت؟ قال: رجل من بني أسد بن خزيمة فاكتم ما سمعت، فشكا إليه أمره وما يلقى من جفوة قيصر له، فقال: قد بلغني خبرك وإنما تؤتى من الترجمان، ثم إن عثمان دخل على قيصر ودعا له الترجمان فقال عثمان: قل للملك: إن الكذوب الفاجر الغادر، قال: هيه؟ فالتزم عثمان الترجمان يريد أنه الموصوف بهذه الصفة. فقال قيصر: إن لهذا العربي قصة فدعا له بترجمان آخر يكلم، وأدى عنه إلى قيصر فقال: إني ضارب للملك على قريش جزية يؤدونها كل عام إذا وردوا الشام بتجاراتهم، قال: فافعل، ثم أتى مكة فقال لقريش وغيرها: إن قيصر يأمركم أن تجعلوا له عليكم ضريبة وخرجا وإلا منعكم التجارة إلى الشام فزبروا عثمان وقرصوه وعابوا دينه وأمره وقالوا: قبحك الله وما جئت به وكان أشدهم عليه أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية والوليد بن المغيرة، ثم إن سعيد بن العاص قدم الشام ومعه أبو ذؤيب هشام بن شعبة بن عبد الله بن أبي قيس بن عامر بن لؤي وكان أبو ذؤيب ابن أخته وسعدبهما عثمان إلى قيصر وقال: إن هذين اعترضا علي وحملا قريشا على إباء ما كانوا سمحوا به من الجزية والضريبة فحبسهما قيصر وقدم الوليد بن المغيرة في آخرين فسعى بهم عثمان أيضا فحبسهم مع سعيد بن العاص وأبي ذؤيب، فمات أبو

ذؤيب في حبس قيصر ثم إن عثمان كلم قيصر في الباقين وأطلقهم، وفي ذلك تقول أروى بنت الحارث بن عبد المطلب:

أبلغ لديك بني عمي مغلغلة	حربا وعفان أهل الصيت والحسب
وابني ربيعة والأعياص كلهم	واعمم بني عبد شمس سادة العرب
مالي أراكم قعودا في بيوتكم	وخيركم منكم للجار والجنب
أبو أحيحة محبوس لدى ملك	بالشام في غير ما ذنب ولا ريب
لو كان بعضكم في مثل محبسه	ألفيتموه شديد الهم والنصب
إن الذي صدكم عنه وثبطكم	عبد لعبد لئيم حق مجتلب
لو كان فيكم صحيحافي أرومتكم	لشفه ما عناكم غير ما كذب.[1]

لو كان فيكم صحيحافي أرومتكم بدأ البلاذري الرواية بقوله : قال الواقدي وغيره ، ولعله يقصد بغير الواقدي ابن إسحاق ، وذلك لأن ابن إسحاق يقول : (وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم ، فتنصر وحسنت منزلته ، قال ابن هشام: ولعثمان بن الحويرث عند قيصر حديث ، منعني من ذكره ما ذكرت في حديث حرب الفجار).

فإن قيل وما الذي منع ابن هشام من ذكر حديث عثمان بن الحويرث عند قيصر والذي ذكره ابن إسحاق، فيجاب : أن ابن إسحاق قد ملأ سيرة النبي ﷺ بكثير من القصص التي لا تتعلق أحياناً بسيرة النبي ﷺ ، وهذا واضح في مقدمة ابن هشام في بداية ذكره لسيرة ابن إسحاق ، فيقول ابن هشام : (وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله ﷺ .... وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل ، على هذه الجهة للاختصار ، إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ...)وهذا مما لم يذكره ابن هشام من باب الاختصار ، وتعهده بعدم ذكر شيء لا يتعلق بسيرة رسول الله ﷺ ، وعندما تحدث ابن هشام عن حرب الفجار لم يذكر ابن هشام إلا الفجار التي شارك فيها النبي ﷺ فقط ، مع أنها أربع فجار ، وحتى عندما ذكر الفجار التي شارك فيها رسول الله ﷺ لم يكثر فيها إنما تحدث عنها بما لا يتجاوز الصفحتين ، وإنما أقل ، وذكر في آخر سطر ، قال ابن هشام : (وحديث الفجار أطول مما ذكرت ، وإنما منعني من استقصائه قطعه حديث رسول الله ﷺ)، وهذه الجملة هي التي عناها ابن هشام في قصة عثمان بن الحويرث لما قال: ولعثمان بن الحويرث عند قيصر حديث ، منعني من ذكره ما ذكرت في حديث حرب الفجار)

لكن الذي ورد عند ابن إسحاق ولم يذكره ابن هشام ، قد ورد عند السهيلي عن طريق البرقي ، فيقول السهيلي : (وذكر عثمان بن الحويرث مع زيد ، وورقة وعبيدالله بن جحش ، ثم قال : وأما عثمان بن الحويرث فإنه ذهب إلى الشام ، وله فيها مع قيصر خبر ، ولم يذكر ذلك الخبر ، وذكر البرقي عن ابن إسحاق : أن عثمان بن الحويرث قدم على قيصر ، فقال له: إني أجعل لك خرجاً على قريش إن جاءوا الشام لتجارتهم وإلا منعتهم ، فأراد قيصر أن يفعل ، فخرج سعيد بن العاص بن أمية ، وأبو ذئب وهو : هشام بن شعبة بن عبدالله بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر إلى الشام ، فأخذا فحبسا ، فمات أبو ذئب في الحبس ، وأما سعيد بن العاصي فإنه خرج الوليد بن المغيرة بنو أمية فتخلصوه في حديث طويل ، رواه ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس).[2] وسبب ذكري لما قبل هذا الكلام هو لأجل أن أصل لهذه الراوية ، حتى أستطيع أن أقارن بين روايتي ابن إسحاق والواقدي ، والمقارنة صعبة بينهما ، خاصة وأن السهيلي يقول : (فتخلصوه في حديث طويل) بمعنى أن الرواية هي أطول من ذلك، والبلاذري ذكرها عن الواقدي بلا إسناد ، وربما يكون للواقدي أكثر من رواية ويكون البلاذري قد اختار منها ، أو اختصرها كما عرجت على ذلك في رواية رقم (2) و (3) ، وربما أيضاً أن كلاً من رواية ابن إسحاق والواقدي تكون من نفس الطريق ، وذلك لان السهيلي قال : (رواه ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة) ، وتلميذ يعقوب بن عتبة هو عبدالله بن جعفر الزهري، والذي هو شيخ للواقدي ، وقد ورد في الرواية رقم (2) إسناد للواقدي عن عبدالله بن جعفر ، وإسناد الواقدي عن عبدالله بن جعفر عن يعقوب بن عتبة والذي هو شيخ ابن إسحاق معروف في كتاب المغازي للواقدي ، وابن سعد ، والبلاذري ، وأحياناً يروي الواقدي ، عن عبدالله ابن جعفر عن ابن أبي عون ، عن يعقوب بن عتبة .

تذكر رواية الواقدي أن عثمان بن حويرث لما تنصر في الجاهلية ، قدم إلى قيصر وكان يعاني من ترجمانه ، فسمع رجلاً عربياً ينشد ، فقال له ممن أنت ؟ قال من بني أسد بن خزيمة ، فشكا إليه عثمان جفاء قيصر ، فأخبره أن الأمر من الترجمان ، فأخبره بحيلة ليتخلص من هذا الترجمان ، ففعل ، فغير قيصر ترجمانه ، فقال له عثمان : إني ضارب للملك على قريش فدية يؤدونها كل عام إذا جاءوا للشام ، قال له قيصر : افعل ، فلما أبلغ قريشاً ، غضبوا منه وعابوا عليه ، ولما ذهب أبو أحيحة وأبو ذؤيب سعى به عثمان إلى قيصر فحبس ومات في الحبس، وأيضاً الوليد بن المغيرة ومعه جماعة ، ثم إن عثمان كلم قيصر فأطلقهم. وعند النظر لكلا هاتين الروايتين لا نجد

السبب الواضح لقيصر لكي يعطي لعثمان الإذن بأخذ جزية من قريش إذا جاءوا للتجارة ، وأيضاً ما الذي سيحصل عليه عثمان بالمقابل ، لكنا نجد الإجابة عند قراءة قصة عثمان بن الحويرث في كتاب نسب قريش للمصعب الزبيري حيث يقول : (وبقية الحويرث بن أسد بن عبد العزى: عثمان، يقال له « البطريق «، لا عقب له، وأمه: تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح؛ ذكروا أن عثمان خرج إلى قيصر، فسأله أن يملكه على قريش، وقال: « أحملهم على دينك، فيدخلون في طاعتك! ففعل، وكتب له عهداً وختمه بالذهب؛ فهابت قريش قيصر، وهموا أن يدينوا له؛ ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة؛ فصاح، والناس في الطواف: « إن قريشاً لقاح! لا تملِك ولا تُملَك! « فاتسعت قريش على كلامه، ومنعوا عثمان مما جاء له؛ فمات عند ابن جفنة؛ فاتهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله.)[3]

يلاحظ أن الزبيري قال ذكروا ، ومن أشهر شيوخ الزبير الواقدي ، يقول البغدادي في تاريخ بغداد : (أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، قال: سمعت أبا العباس محمد بن يعقوب الأصم، يقول: سمعت العباس بن محمد الدوري، يقول: سمعت يحيى بن معين وذكر النسب، فقلت له: إنما أخذه الزبيري عن الواقدي، فقال: يحيى الزبيري عالم بالنسب، يعني: مصعبا[4] ، وقد ذكره الزبيري في كتابه عدة مرات إلا أنه لا يمكن الجزم عمن أخذ هذه الرواية .

إذن فالإجابة هي : أن عثمان أراد أن يكون ملكاً من قبل قيصر مقابل أن يزيد مدخول الدولة البيزنطية من قبل الضريبة التي ستفرض على تجارة قريش ، لذلك نجد العديد من المصادر أطلقت على عثمان بن الحويرث ((البطريق))[5] ، وهو لقب يُذكر عند الحديث عن الغساسنة ، وهم وإن كانوا ملوكاً عند العرب وعليهم ، فإنهم لم يأخذوا لقب ملك من قبل قيصر ، بل أطلق الروم عليهم لقب ((بطريق)) ، لأن لقب ملك لا يكون إلا للقيصر ، ولكن العرب ترجموا اللقب إلى ملك ، وأول من جمع بين لقب بطريق وبين شيخ بيلة (فيلارخ) هو الحارث بن جبلة الغساني.[6]وقد يسأل أحدهم فيقول : ألم يأخذ هاشم بن عبدمناف الأمان من القيصر على الأمان على بضائع قريش كما تم التعريج على ذلك في رواية رقم (4)، فأين ذهب ذلك العهد ؟.فيجاب : بأنه بالفعل قد أخذ هاشم بن عبدمناف العهد والأمان من قيصر كما مر سابقاً،ولما فيه من المصلحة لكلا الطرفين ، وقد كانت ولادة هاشم بن عبد مناف في عام 475 م تقريباً[7])، وتوفي عام 500م[8] ، فيكون القيصر الذي عاصره في أخر عمره هو:(الامبراطور انستاسيوس الأول ، 491م – 518 م) ، وهاشم هو أول من سن الرحلتين كما مر سابقاً ، يقول ابن سعد : (وكان أول من سن الرحلتين لقريش ، ترحل إحداهما

في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه ، ورحلة الصيف إلى الشام إلى غزة وربما بلغ أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه)[9] ، وكان هذا الامبراطور يمر بمشاكل اقتصادية شديدة ، فقد تولى عرش الإمبراطورية في ظل ظروف مالية صعبة ، فالخزانة تعاني من الإفلاس الشديد ، بسبب الأموال المهدرة، وفرض الضرائب الباهظة على سكان المدن والريف ، بالإضافة لتدهور قيمة العملة وندرتها ، أدركنا في نهاية الأمر حجم المشكلات التي واجهها الامبراطور.[10]وورد أنه اشتهر بكفاءته الإدارية وإصلاحاته المالية ، وأيضاً أسهم في نهوض التجارة والصناعة[11]، لذلك عندما يأتيه هاشم بمثل هذا الاقتراح وهو التجارة الحرة الآمنة بدون ضرائب ، بين بلاد العرب وبلادهم ، وهاشم يريد الارتقاء بتجارة قريش والخروج عن حدود التجارة لقريش من الحجاز إلى أبعد من ذلك ، فإن في قبول هذا الطلب من قبل الامبراطور فائدة لكلا الطرفين ، فالسلع التي ستأتي من قبل الحبشة وما قد يأتي من الهند ويقف في اليمن ، فسيكون محركاً قوياً للاقتصاد الرومي ليزيد التبادل التجاري ، وبذلك زيادة دخل المال للدولة . ولكن هذا لا يعني أن هذا العهد قد استمر فترات طويلة ، فمن جاء بعد انستاسيوس ربما عنده من الأولويات ما يجعله يغض الطرف عما اتفق عليه من كان قبله ، خاصة إذا عُرف أنه بين أنستاسيوس والقيصر الذي عرض عليه عثمان بن الحويرث فرض الضرائب على قريش المئة عام ، فقد توفي عثمان بن الحويرث قبل مبعث النبي ﷺ بثلاث سنين [12]، أي عام 607 م تقريباً لأن النبي ﷺ بعث عام 610 م ، فيكون قيصر عثمان بن الحويرث هو : (الامبراطور فوكاس ، 602 – 610) ولم يذكر في سيرته الخير لا في سبيل إدارته الداخلية ولا الخارجية ، فإن قيل أن عثمان توفي عام 607 م ولكن لا يعني هذا أن القيصر الذي ذهب إليه هو فوكاس ولكن ربما يكون الذي قبله وهو : (موريس ، 582 – 602) فيجاب: بأنه لم يكن أفضل حالاً من فوكاس، فسبب انقلاب فوكاس عليه هو سوء الإدارة وسوء الأحوال المالية[13]، لذلك لشخصية هذين القيصرين استغل عثمان أحدهما بفكرة جلب المال إليه عن طريق الضرائب ، وخاصة وأن مثل هذا الاتفاق الذي لم يكتب وإنما جرى التعارف عليه يمكن أن يتغير بسهولة ، كما حدث بين العرب والفرس ، فقد ذكر العسكري في كتابه الأوائل : (خرج أبو سفيان بن حرب وركب من قريش وثقيف يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم ، فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال : إنا في مسيرنا هذ لعلى خطر ، قدومنا على مكان لم يأذن لنا بالقدوم عليه ، وليس لنا بمتجر فأيكم يذهب بالعير ، فإن أصيب فنحن براء من دمه ، وإن يغنم فله نصف الربح ، قال غيلان بن سلمة الثقفي : أنا

أمضي بالعير.....ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وبعث معه .... قال أبو هلال – أيده الله – في هذا الخبر دليل على أن الأمر الذي عقده نوفل بن عبد مناف بين العرب والفرس كان قد انقضى).[14]

لكن باءت محاولة عثمان بن الحويرث بالفشل، وبقي الاتفاق والعهد سارياً ، وتكاد تجمع المصادر على أن عثمان تنصر بالشام[15] ، لكن ابن إسحاق ذكر أنه قدم على قيصر وتنصر ، وحسنت منزلته عنده [16]، بينما يذكر محمد بن حبيب في المنمق : (أنه انطلق حتى قدم على ابن جفنة ملك الشام فقال له: هل لك أن تدين لك قريش قال: نعم، قال: فاكتب لي، ملكني عليهم، قال: على أن تدين لك،.....اكتب لي كتابا وملكني عليهم، فكتب له وملكه وجعل له خرجا على كل قبيلة، فأقبل بكتاب ابن جفنة حتى قدم مكة، فلما قدم على قريش أنكرت ذلك فركب منهم رجال إلى ابن جفنة ، فلما قدموا عليه كلموه وقالوا: ان عثمان امرؤ سفيه وليس مثلك يصنع بنا مثل هذا الذي صنعت ونحن عارفون بحقك ونحن أهل حق وأهل البنية فعمد ابن جفنة فأخرج عثمان وطرده، فانطلق عثمان حتى قدم على قيصر فأراد كلامه.....)[17]

فتذكر رواية ابن حبيب أن عثمان ورد أولاً عند ابن جفنة ، وليس على قيصر مباشرة ، والجمع بينهما سهل ، ذلك أن عثمان لما ما وجد بغيته عند ابن جفنة انتقل إلى قيصر ، ورواية ابن إسحاق تذكر أنه تنصر عند قيصر ، وهذا أقرب للصحة ، لكي يحصل على حظوة عند القيصر ، ويطلب منه ما يريد ، فيكون الاختلاف بين الروايات التي ذكرت عثمان بعضها يبدأ مباشرة من الخبر الأهم وهو ذهابه لقيصر ومن ثم موافقة قيصر على طلبه ، كما بدأها البلاذري هنا من طريق الواقدي ، وبعض الروايات تبدأ من البداية وقصة خروجه وذهابه لابن جفنة.

ثم إن رواية ابن حبيب تفسر سبب ما كان يلقاه عثمان من الترجمان الذي ورد في رواية الواقدي عند البلاذري وفي الروايات عند غير البلاذري ، فيقول : (فبلغ ذلك ابن جفنة فبعث الى البواب والترجمان أن لا يدخلاه ولا يخبرا قيصر أمره وأمرهما أن يخالفا بكلامه حتى لا يرفع به رأسا، فخرج قيصر ذات يوم راكبا فاعترض له عثمان فصاح إليه وصرخ وكلمه، فقال قيصر: ما يقول؟ قال الترجمان: هذا إنسان مجنون يقول: إن في أرضي مالا على رأس جبل وإن أعطيتني مالا ضربت ذلك الجبل لك حتى يخرج المال منه، وكذب الترجمان عليه لكتاب ابن جفنة...) فيظهر أن السبب في ذلك هو ابن جفنة ، ولعل ابن جفنة كان ممن يستفيد من تجارة قريش ، لأن منطقة الغساسنة في جنوب الشام والتجارة لابد أن تمر بها ، فإذا ما ضربت الضرائب فإن

التجارة ستقل في بلاده ، وسيعزف التجار عن الذهاب إلى الشام والمرور به ويتحولون بتجارتهم للعراق فقط دون الشام ، فأراد أن يتخلص من عثمان بن الحويرث قبل أن يصل بهذه الفكرة لقيصر .

ثم يكمل ابن حبيب روايته فيقول : (فبينا هو قاعد عند معلم يعلم ناساً من الروم الكتاب فلما قعد عثمان معه واستمكن من حديثه تمثل المعلم بيتا من شعر هذا وقد ملأ عيني من حضر، فأخذ عثمان بثوبه وعرف أنه عربي فقال له: والله لا أتركك حتى تخبرني من أنت! وإنك لعربي وإني لرجل من قومك، فلما رأى ذلك المعلم قال: ويلك لا تكلمني فإن ابن جفنة قد كتب فيك الى كل بواب وترجمان فليس ههنا أحد يغني عنك شيئا ولكنك إن أعطيتني موثقا دللتك على ما ينفعك فأعطاه فقال له: إذا مر عليك الملك فقل له كذا كذا كلمة علمه إياها من دينهم فإذا دعاك الترجمان فالزمه وشق ثوبك وقل: هذا الذي أهلكني فادع لي ترجمانا آخر غيره، فلما مر به الملك فعل مثل الذي أمره به فدعا الملك ترجمانا غيره حين فعل الأول ما فعل...)

ففي هذه الرواية تبين أن معلماً عربياً يدرس الروم تمثل ببيت شعر عربي فسمعه عثمان ، بينما رواية الواقدي تذكر أنه سمع رجلاً ينشد الشعر العربي ، لكن لا يوجد تناقض بينهما ، فلعله استمع إليه وهو يعلم الروم لكن رواية الواقدي لم تصرح بذلك إنما صرحت من أي العرب هو، فذكرت الرواية أنه من بني أسد بن خزيمة ، وكون هذا العربي يتكلم بلسان الروم ، ويعلمهم أيضاً الكتاب المقدس ولعله كان يعلم صبيانهم ، فلا يمكن أن يكون غير نصراني ، وهو من العرب المتنصرة الذين ببلاد الشام ، وفي رواية الواقدي أخبره كيف يتخلص من الترجمان ، بينما في المنمق ، تذكر الرواية أن العربي كان يعرف سبب تحريف الترجمان وأنه بسبب ابن جفنة .

وهذا يدفعنا إلى سؤال وهو : من هذا الغساني الذي بلغ من سلطته ونفوذه لكي يصل أمره لجميع الحراس والمترجمين في الدولة ؟ ، وتظهر الإجابة عند ابن حزم فيقول : (فدست قريش إلى عمرو بن جفنة الغساني ، فسم عثمان بن الحويرث فمات بالشام)[18] ويذكر ابن هشام في التيجان في ملوك حمير: (عمرو بن جفنة أول من تتوج من ملوك غسان)[19] ، فهذا يفسر النفوذ الذي وصل له ابن جفنة في ذلك الوقت وأنه قادر على إعطاء مثل هذه الأوامر، وخاصة وأن الغالب على الظن أن أكثر أهل الترجمة من العربية إلى الرومية هم من عرب الشام ، فيتبعون أوامر الملك الغساني لاشتراكهم مع الملك الغساني في اللغة والجنس والدين.

فأرسل قيصر عثماناً إلى قريش بأمر الضرائب ، فتوعدوه وعابوا دينه وأمره ، مما جعله يسعى لأي أحد منهم يسافر بتجارة للشام ، فكان ممن

سافر في ذلك الوقت هو سعيد بن العاص من بني أمية وأبو ذؤيب من بني عامر بن لؤي .

ويكمل البلاذري الرواية بقوله : (وقدم الوليد بن المغيرة في آخرين فسعى بهم عثمان أيضاً ، فحبسهم مع سعيد بن العاص وأبي ذؤيب ، فمات أبو ذؤيب في حبس قيصر ، ثم إن عثمان كلم قيصر في الباقين فأطلقهم ، وفي ذلك تقول أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب:

أبلغ لديك .....

إن الذي صدكم عنه وثبطكم عبد لعبد لئيم حق مجتلب)

وإلى هنا تنتهي رواية البلاذري عن الواقدي، ولكنها لا تبين ما هو سبب قدوم الوليد بن المغيرة ومن معه للشام ، مع غلبة الظن علمهم بسجن سعيد وأبي ذؤيب ، ثم ما الذي دفع عثمان للتوسط لقيصر لإخراجهم؟ ، ومن كانت تقصد أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب بالبيت السابق؟.

فيظهر أن الإجابة ستكون في باقي القصة التي لم يذكرها ابن هشام اختصاراً ، وكذلك لم يذكرها السهيلي ، إنما نبه عليها بقوله : (فتخلصوه في حديث طويل) ، لكن عند غير ابن إسحاق والواقدي وردت تكملة للقصة فيُذكر في المنمق : (فأقبل عثمان بالكتاب حتى قدم على ابن جفنة فدفعه إليه فقال ابن جفنة: خذ من وجدت ههنا من قومك، فأخذ رجالا من قريش منهم سعيد ابن العاص بن أمية وأبو ذئب بن ربيعة أحد بني عامر بن لؤي أخذهم تجارا بالشام فسجنهم، فأما أبو ذئب فمات في الحديد، وأما سعيد فمكث حتى افتداه عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وأبو أمية بن المغيرة، ومنهم من يقول: إنما افتداه هشام بن المغيرة وأبو أمية بن المغيرة، وكانت تحت سعيد بن العاص أخت لهما...).[20]

فيظهر أن سبب ذهاب جماعة من قريش للشام كان بسبب إطلاقهم لسعيد بن العاص ، فلما دفعوا الفدية ، سعى عثمان لإخراجهم وإرجاعهم لبلادهم ، وسواءً كان الذي افتدى سعيد بن العاص عتبة بن ربيعة وأبو أمية بن المغيرة ، أو هشام بن المغيرة وأبو أمية ، أو كما ورد عند السهيلي عن ابن إسحاق أن من ذهب لإخراجه الوليد بن المغيرة ومعه بنو أمية ، فإن الجمع بين هذه الروايات أنهم جميعاً خرجوا في وفد كبير ، لأن السهيلي يقول : (خرج الوليد بن المغيرة وبني أمية فتخلصوه) فدل على أنهم جماعة ، وأيضاً رواية البلاذري تقول : (وقدم الوليد بن المغيرة في آخرين) ، ويمكن الجمع بين هذه الروايات وما ورد عند ابن حبيب في المنمق بأن رئيس الوفد في خروجه من مكة هو الوليد بن المغيرة ، ولكن من سعى في إخراج سعيد بن العاص والمفاوضة مع الجانب الآخر هو أحد من ذكرت أسمائهم في المنمق.

وأما قصة البيت الذي ذكرته في أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب وهو:

إن الذي صدكم عنه وثبطكم عبد لعبد لئيم حق مجتلب

فلعلها كانت تقصد مسافر بن أبي عمرو بن أمية ، فقد ورد عند الزبير بن بكار : (وأجمع رهط من بني عبد شمس أن يفتدوا سعيد بن العاص بمال يجمعونه. فقال لهم مسافر بن أبي عمرو: لا تفتدوا رجلاً فانياً واحداً بهذا المال، وزوجوا به فتياناً من فتيانكم، يولد لبعضهم مثله. فعصوه وافتدوه)[21]

فلعلها كانت تقصد مسافر بن أبي عمرو في قولها : (إن الذي صدكم عنه وثبطكم) ، وإن قيل لعلها كانت تقصد بهذا البيت عثمان بن الحويرث فذاك وارد ، وذلك لأنها قالت في الشطر الأخر : (عبد لعبد لئيم حق مجتلب) فلعلها كانت تقصد عثمان بن الحويرث وأنه أصبح عبداً عند ابن جفنة ، والله أعلم.

ثم إن في نسبة هذه الأبيات إلى أروى بنت الحارث فيه نظر ، ذلك لأنها ليست من بني أمية ولا من بني مخزوم ، ثم إنه لم يوجد ذكر لبني عبدالمطلب في هذه القضية ، كما أنه لا يوجد ذكر لهذه الأبيات في مصادر أخرى غير أنساب الأشراف ، فإن قيل لربما قالت أروى بنت الحارث هذه الأبيات لأن هذه القضية كانت قضية عامة لقريش كلهم ، وأن هناك قرابة بين بني هاشم وبني عبدشمس ،فأبناءهم يعتبرون أبناء عمومة لبعضهم ، وسعيد بن العاص من بني أمية بن عبد شمس ، فيجاب بأن هذا وارد ، لكن سياق الأحداث يستبعد الرأي الآخر والله أعلم .

الخاتمة:

توصل البحث إلى أن عبدالمطلب قد ولد تقريباً عام 500م ، وأنا أباه: هاشم بن عبدمنافقد ولد عام 575م ميلادي ، ولأن عمره كان قصيراً ، خمس وعشرون عاماً ، فقد تيسر توقع قيصره الذي تم الاتفاق حول التجارة الحرة بين الشام ومكة وهي المشهورة برحلة الشتاء والصيف ، وهو الامبراطور أنستاسيوس والذي حكم من عام 591م – 518م ، وكان موافقته للفائدة لكلا الطرفين ، فهاشم يريد يوسع تجارة قريش إلى ما هو أبعد من الحجاز ، وأنستاسيوس يريد تحسين أمور الدولة من الناحية الاقتصادية ، كما أن عثمان بن الحويرث كونه توفي قبل بعثة النبي ﷺ بثلاث سنوات فقد تيسر معرفة قيصره الذي حاول التأثير عليه لفرض ضرائب على تجارة مكة وهو الامبراطور فوكاس الذي حكم من عام 602م – 610، أو ربما يكون الامبراطور موريس الذي حكم من عام 582م – 602م ، وذلك لما عرف عنهما سوء التخطيط والتخبط في الإدارة الداخلية والخارجية.

الهوامش:

(1) البلاذري ، أنساب الأشراف: ج8 ، ص92 ، 93

(2) السهيلي ، الروض الأنف : ج1 ، ص512

(3) الزبيري ، نسب قريش : ص 210

(4) الخطيب البغدادي ،تاريخ بغداد : ج15 ، ص138

(5) انظر : جمهرة نسب قريش وأنسابها ، ص425 ، تاريخ دمشق ، ج35 ، ص332 ، الروض الأنف : ج1 ، 512 (المكتبة الشاملة)

(6) نولدكه ، أمراء غسان ، ص10 – ص13

(7) تحديد تاريخ ولادة هاشم بن عبدمناف مسألة اجتهادية بحتة، وقد ورد عند الزركلي في الأعلام أن هاشماً ولد 127 ق . هـ ، ولم يذكر بناءً على ماذا حدد هذا التاريخ أو عمن نقله ، ونقل محمد بيومي مهران في هامش كتابه تاريخ العرب القديم أن وليم موير صاحب كتاب : حياة محمد يرى أن هاشماً ولد حوالي عام 464م ، وابنه عبدالمطلب ولد 497م ، ص 358 ، ولعله أخذه عما جاء في عيون الأثر : أن عمر عبدالمطلب عند وفاته مختلف فيه ما بين 95 إلى 120 =(بتصرف انظر عيون الأثر ص50) ، فمن أخذ أن عمر عبدالمطلب عند وفاته 95 سيجعل ولادته عام 484م لأنه توفي وعمر النبي ﷺ 8 سنوات ، والنبي ولد عام الفيل ، فيكون عبدالمطلب توفي تقريباً 579م ، فستكون ولادته عام 484م بناءً على ذلك، وطبعاً سيكون هاشما ولد قبل هذا التاريخ ، لكن فات وليم موير أن هاشماً توفي قريباً من ولادة ابنه عبدالمطلب ، فيجب أن يكون هاشماً توفي في نفس العام الذي ولد فيه عبدالمطلب أو العام الذي قبله ، وأرى أن ما نقل في عيون الأثر غير دقيق ، فقد نقله عن الكلاعي ، والكلاعي نقله عن الزبير لعله بن بكار ، والسبب الذي أرى أن هذا العمر مبالغ فيه هو : أن عبدالمطلب قد ورد عنه أنه بعد عام الفيل قد ذهب لسيف بن ذي يزن لتهنئته بطرد الأحباش ، ومن الصعب السفر في مثل هذا العمر الكبير الذي يقارب التسعين لليمن، هذا إذا أُخذ العمر الأقل وليس الأكبر والذي هو مئة وعشرين عاماً ، وصحيح أنه مات كبيراً لكنه لم ينقل عنه أنه طعن في السن أو كان من المعمرين ، أو أنه من كبره كان يقاد من أبنائه ، لذلك أرى أنه لو كان عمره عند وفاته هو الثمانين لكان أقرب للواقعية ، فتكون ولادته 500م .والله أعلم

(8) ذكر ابن سعد أن عمر هاشم عند الوفاة عشرين سنة ، وقال البلاذري : وكان لهاشم يوم مات خمس وعشرون سنة وذلك الثبت ، ويقال عشرون سنة . ولعل البلاذري ينقل كلام ابن سعد .

(9)ابن سعد ، الطبقات : ج1 ، ص57
(10) إيهاب صديق العربي ، بعض الإصلاحات الداخلية في عهد الامبراطور البيزنطي أنستاسيوس الأول ، ، طالب دكتوراه ، جامعة عين شمس ، إشراف ، أحمد الشعراوي ، ناهد صالح ، العدد السادس عشر ، الجزء الثاني ، 2015
(11) العريني ، الدولة البيزنطية ، ص 58 ، 61
(12) ابن كثير ، البداية والنهاية : ج2 ، ص548
(13) العريني ، الدولة البيزنطية ، ص102 114-
(14) العسكري ، الأوائل : ص349
(15) ابن هشام ، السيرة النبوية : ص207 ، ابن حبيب ، المحبر : ص171 ، البلاذري ، أنساب الأشراف: ، ج8 ، ص92 ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب: ج1 ، ص118.
(16)ابن هشام ، السيرة النبوية : ص207
(17) ابن حبيب ، المحبر : ص154 ، ص156
(18)جمهرة أنساب العرب : ج1 ، ص118
(19)ابن هشام : التيجان في ملوك حمير: ص297
(20) ابن حبيب ، المنمق : ص156
(21)الزبير ، بن بكار ، جمهرة نسب قريش وأخباها : ص428

المصادر والمراجع :

(1)البلاذري ، أنساب الأشراف ، دار المعارف ، مصر ، 1959
(2)ابن سعد ، الخانجي ، الخانجي ، مصر ، 2001
(3)ابن هشام ، السيرة النبوية ، شركة ومكتبة مصطفى البابي ، مصر ، 1955
(4)ابن هشام ، التيجان في ملوك حمير ، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء ، الجمهورية العربية اليمنية الطبعة: الأولى، ١٣٤٧
(5)العسكري ، الأوائل ،دار البشير ، طنطا ، 1408
(6)ابن حبيب ، المنمق ، عالم الكتب ، بيروت ، 1985
(7)ابن حبيب ، المحبر ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، 1431
(8)إيهاب صديق العربي ، بعض الإصلاحات الداخلية في عهد الامبراطور البيزنطي أنستاسيوس ، طالب دكتوراة ، جامعة عين شمس ، العدد السادس عشر ، الجزء الثاني ، 2015
(9)الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش وأخبارها ، مطبعة المدني ، (د.ط) ، (د.ش) ، 1381
(10)العريني ، الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت)
(11)نولدكه ، أمراء غسان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1933 ، ترجمة د. قسطنين زريق
(12)السهيلي ، الروض الأنف ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 2000